

ضرورة تضمين التَّدبر في منهج التحفيظ

محمود عبد الكريم مهنا⁽¹⁾

⁽¹⁾ طالب دكتوراة في جامعة العلوم الإسلامية الماليزية/ ماليزيا، قسم القرآن والسنة، محاضر في كلية العلوم التربوية/ الطيرة.

الملخص:

القرآن الكريم هو أعظم ما يرفع قدر البشر ويبارك خطواتهم، وكل علاقة به تُفيض على أصحابها نورًا وبركة، ويصعب على الإنسان أن يفاضل بين علاقة وأخرى، وإن كان بعضها أعلى درجة من الآخر، وبعضها يُكمل الآخر، ومن ذلك الحفظ والتدبر، فهما متكاملان، وتشير الملاحظات إلى أن واقع معظم مراكز التحفيظ في فلسطين التركيز على الحفظ دون التدبر، فجاء هذا البحث ليسلط الضوء على أهمية تزامن الأمرين في مراكز التحفيظ.

وقد قسمت مادة البحث إلى ثلاثة مباحث يتناول المبحث الأول أهمية التفسير للحفظ، والتي تكمن في تمتين الحفظ من خلال ربط الآيات، ومن خلال ضبط المتشابهات، كما يبين أثر ذلك في زيادة التأثير القلبي بما يُحفظ، وتعديل السلوك والتطبيق العملي للآيات، وتنمية مهارات التفكير العليا، وزيادة الثروة اللغوية لدى الطلبة، أما المبحث الثاني فيتناول محاور التدبر التي يمكن تفعيلها في المراكز، والتي تتنوع حسب الفئة المستهدفة وقدراتهم، وهذه المحاور هي: عرض معاني مبسطة لبعض الكلمات، مقارنة بعض الآيات المتشابهة في السورة الواحدة أو عدة سور، التدبر في التناسب، التدبر في مواضع الوقف والابتداء، أما المبحث الثالث فتناول آليات مقترحة للتطبيق العملي للفكرة على مستوى المراكز، وعلى مستوى الهيئات المشرفة.

هذا البحث الذي يعتمد المنهج الوصفي التحليلي، يأمل الباحث أن يساهم من خلاله بالارتقاء بمراكز التحفيظ في فلسطين، كمًّا ونوعًا.

كلمات مفتاحية: التدبر، الحفظ، المتشابهات

التمهيد:

لقد اهتم المسلمون بالقرآن الكريم منذ نزوله، حفظاً وفهماً وتطبيقاً، واجتهد كثير منهم في تعلّمه وتعليمه، فنالوا بذلك الشرف والرفعة والخير، ويكفيهم شرفاً أن يكونوا ممن اختارهم الله تعالى ليحفظ من خلالهم القرآن عبر العصور، ولا تكاد تجد أمة اهتمت بكتاب مثل القرآن، ولا تجد في أمة من يحفظ كتاباً بمنتهى الدقة، فكيف إذا وجدت في كل عصر الأعداد الكبيرة ممن يحفظونه ويعلمونه؟

ولا يخفى على أحد مكانة حفظ القرآن الكريم، ومقام الحفظه العاملين، وتَعَظُم أهمية حفظ القرآن الكريم؛ لكونه خاتم الكتب السماوية، وتتمثل أهميته في أن حفظ القرآن الكريم يعدّ أولى خطوات طلب العلم وخاصة عند العلماء الأقدمين، حيث كان أحدهم يبدأ رحلته في طلب العلم بحفظ القرآن الكريم، بل إنهم كانوا يُباشرون حفظه منذ نُعومة أظفارهم، ثم ينتقلون إلى حقول العلم الأخرى، وتكمن أهمية حفظ القرآن الكريم في كونه مقدّمة للعلوم الشرعية الأخرى، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن حفظ القرآن الكريم أنه: "مُقَدَّمٌ فِي التَّعَلُّمِ فِي حَقِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ عِلْمَ الدِّينِ مِنَ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، فَإِنَّ الْمَشْرُوعَ فِي حَقِّ مِثْلِ هَذَا فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ أَنْ يَبْدَأَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ أَصْلُ عُلُومِ الدِّينِ"⁽²⁾.

وعليه فإن دور مراكز تحفيظ القرآن عظيم، فهي تُشجّع على الحفظ، وتنتشر هذه الفضيحة، خاصة لصغار السن، كما أن الداعمين لها يشاركون في بناء أهم لبنات المجتمع الصالح. وبفضل الله تعالى فإن مراكز تحفيظ القرآن الكريم قد انتشرت في فلسطين في أواخر القرن الماضي، وتخرّج منها أعداد من الحفظ، ويسعى المهتمون إلى الارتقاء بهذه المراكز لتؤدي دورها على الوجه الأمثل.

ومن خلال تجربة الباحث في الإشراف على مراكز التحفيظ في محافظة رام الله في الأعوام 1997-2002، فقد لاحظ أن هذه المراكز تقتصر في عملها على الحفظ فقط، ولم يكن للتفسير أي علاقة بعملها، وهذا حال كثير من مراكز التحفيظ في العالم الإسلامي، فقد ذكر الدكتور ناصر العمر رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن أن الملاحظ عدم الاعتناء بالتدبر إطلاقاً في حلقات التحفيظ⁽³⁾. ومن خلال دراسات للباحث، وبناء على تجربة عملية محدودة في العامين 2016-2017م، لاحظ الباحث أهمية تضمين التفسير في برنامج التحفيظ، ويأتي هذا البحث لتعديد وتأسيس هذا الأمر للاستفادة منها والعمل على تطبيقه لأهميته.

(2) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، (2 / 235).

(3) انظر: ناصر العمر، مدارج الحفظ والتدبر، ص98..

المبحث الأول: أهمية تدبر القرآن الكريم للحفظ:

التدبر لغة: من الدُبُر والدُّبُر: نَقِيضُ الْقُبُل. ودُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ: عَقِبُهُ وَمُؤَخَّرُهُ. والِدال والباء والراء تدل على معانٍ قد ردها في معجم المقاييس إلى معنى كُلِّي بقوله: "أصل هذا الباب: أَنَّ جُلَّهُ في قياسٍ واحد، وهو آخر الشيء وخَلْفُهُ خلافُ قُبُلِهِ"⁽⁴⁾.

أما في الاصطلاح فهو: النظر فيما وراء ظواهر المعاني في الآيات من الدلالات والغايات، قال صاحب الكشف: "تدبر الآيات: التفكير فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يُدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة"⁽⁵⁾.

وقد ورد الحث على التدبر في مواضع متعددة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (النساء: 82). قال الزمخشري: "فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه"⁽⁶⁾. وقوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} (ص: 29)، "أي: ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال .وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذ، إذ لا يصح التدبر مع الهذ"⁽⁷⁾. وقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد: 24)، قال ابن عطية: "توقيف وتوبيخ، وتدبر القرآن: زعيم بالتبيين والهدى"⁽⁸⁾. وقال ابن كثير: "وترك تدبره وتفهمه من هجرانه"⁽⁹⁾.

وقد ورد بطريقة غير مباشرة في قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} (البقرة: 78)، قال الشوكاني: "وقيل: الأمانى: التلاوة، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبر"⁽¹⁰⁾.

ويعتبر أهل العلم أن التدبر من أهم مقاصد إنزال الكتاب الكريم، فهو يُعبر عن تعظيم التنزيل، وينبغي عليه الفوائد الكثيرة، النفسية والعقلية والإيمانية والسلوكية، يقول ابن تيمية: "والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه، والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم، والدين"⁽¹¹⁾.

(4) الرازي، معجم مقاييس اللغة، 2/ 324

(5) الزمخشري، الكشف، 4/ 92

(6) الزمخشري، الكشف، 1/ 450

(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 15/ 192

(8) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 5/ 119

(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/ 108

(10) الشوكاني، فتح القدير، 1/ 104

(11) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، 2/ 235

فوائد تدبر القرآن الكريم للحفظ:

أولاً: تمتين الحفظ من خلال ربط الآيات وفهمها:

يرى بعض التربويين أن التعلم المرتبط بالمعنى يحقق نسبة عالية من تمكّن الحفظ، وممن حمل هذه الفكرة (أوزبل) صاحب نظرية التعلم اللفظي ذو المعنى، ويرى أنه إذا قام الطالب بحفظ المادّة دون أن يجد أي رابطة بينها وبين بنيته المعرفية، فإنّ التعلّم هنا يكون بلا معنى؛ ولذلك يرى أوزبل أنّ سرعة التعلّم وفاعليته تعتمد على مدى ارتباط المعلومات الجديدة التي يحصل عليها الطالب بالمعلومات السابقة، وعلى مدى وترابطهما داخل البناء المعرفي⁽¹²⁾، "وقد دلت الأبحاث أيضًا على أهمية الفهم في عملية التعلّم، فالمادة يجب أن يفهمها التلميذ حتى يستطيع تذكرها بسهولة"⁽¹³⁾، ولا شك أن هذا الأمر يلმسه كثير من المعلمين والمربين.

وإن القرآن المعجز ببلاغته وتعبيراته، ويتجلّى ذلك في نظمه كلّ، وفي كل سورة، بل وفي كل آية، ليستثير عند القارئ كثيرًا من الأسئلة التي تدعو إلى التأمل والتدبر، وتحتاج في كثير من الأحيان إلى طول نظر، خاصة فيما يتعلق بارتباط الآيات ببعضها، وارتباط تذييل الآية بها، ووجود الآيات المتشابهة التي تُشكّل تحدّيًا للحفاظ في كثير من المواقع، كما أنه نص مُحكم، كل ذلك يدعو إلى التوقف عند هذه المواضع في مراكز تحفيظ القرآن ليسهل على الطلبة استحضار المعنى المرتبط بالآية في موقعها.

ثانيًا: التلذذ بالقرآن الكريم:

إن التدبر للقرآن الكريم والاجتهاد في معرفة بعض أسرارهِ يجعل عند من يفعل ذلك لذة ناشئة عن الوصول إلى دُرهِ، إضافة إلى أنه يستشعر الفيض الرباني وعظمة التنزيل، قال الزركشي: "من لم يكن له علمٌ وفهمٌ وتقوى وتدبر، لم يُدرك من لذة القرآن شيئاً"⁽¹⁴⁾. وقال الطبري: "إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذُّ بقراءته"⁽¹⁵⁾.

كما إن المحاوره في العلم تثير انتباه السامعين، وتُشوّقهم إلى معرفة الجواب، وتُرسّخ العلم في أذهانهم، وتحضّمهم على إعمال الفكر، وتُعَوّدُهم المشاركة والإيجابية، ولا شك أن الطالب حين يكون مجرد مستمع فإن ذلك سيؤدّي إلى ملله، أما إن تمت مشاركته من خلال التدبر فسيشعر بالنشاط والحيوية.

(12) انظر: العتيبي، نايف، استخدام إستراتيجية خرائط المفاهيم في العملية التعليمية

(13) حسنين، عواطف، سيكولوجية التعلّم، 32

(14) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/ 155

(15) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، 10/ 1

ثالثًا: زيادة التأثير القلبي وتعديل السلوك:

القرآن الكريم كتاب تربية ومادة حياة للقلوب، وقد لا يستفيد من تذكّره من لا يقف عند الآيات تأملًا وتدبّرًا، فالقرآن "ليس كتاب علم نظري أو تطبيقي ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب ما فيه. إنما القرآن كتاب يخاطب القلب، أول ما يخاطب ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح، الذي يتلقاه بالإيمان واليقين"⁽¹⁶⁾. ويقول السعدي: "إِنَّ تدبر كتاب الله **مفتاح للعلوم** والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القوم عليه، ويعرّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب"⁽¹⁷⁾.

وبالتالي فإن وقوف المعلم في كل حلقة عند بعض الآيات والتعليق عليها وتوضيح مقاصدها يزرع قيمًا تربوية لدى الطلبة، ويجعلهم يستشعرون معنى الآيات عند مراجعتها والعيش في ظلال المعاني التي سمعوها، لذا لا بد أن يولي المحفظون والمحفظات هذا الأمر عناية خاصة، ويحضّروا تفسير بعض الآيات من أكثر من تفسير، ثم يستنبطوا منها ما يصلح للتربية والتوجيه وزرع الخشية في القلوب لدى الطلبة، ومن الجيد أن تتنوع المجالات التي يتم التطرق إليها، ومن ذلك الحديث عن أهوال الآخرة، ووصف الجنة والنار، وعن إبداع الله في خلقه، واستشعار نعم الله تعالى، وسنن الله تعالى في المجتمعات.

رابعًا: زيادة الثروة اللغوية لدى الطلبة:

القرآن الكريم كتاب بليغ تحدّى الله به البشر على أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا عن ذلك، بل ولم يجدوا فيه اختلافًا، ولم يجدوا كلمة في غير محلّها، وقد حفظ القرآن الكريم للعرب لغتهم فبقيت تتألق وتزدهر ويُعتنى بها على مر العصور، ومما يلفت النظر أن هناك مفردات فصيحة في القرآن الكريم لا يستخدمها كثير من العامة، لذا فالوقوف عند بعض الكلمات شرحًا وتفسيرًا وبيانًا لاستخداماتها الأخرى يزيد لدى الطلبة المفردات الفصيحة، ويثري قاموسهم اللغوي.

(16) سيد قطب، في ظلال القرآن، 5/ 2625

(17) السعدي، تفسير السعدي، 190

خامساً: تنمية مهارات التفكير العليا:

القرآن الكريم كتاب يدعو إلى الفكر، وهو في الوقت نفسه يربي على التفكير المنهجي، ويظهر ذلك من خلال التوجيه المباشر وغير المباشر، ويمكن لمدرسي الحلقات القرآنية استثمار مواضع عديدة لتعميق مهارات التفكير لدى الطلبة، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثَوِّرُوا الْقُرْآنَ» يعني: أثيروه ونَقَّبُوا في آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره⁽¹⁸⁾، ولقد استخدم النبي ﷺ مثل هذا الأمر في مواقف عديدة، ومن ذلك: عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»⁽¹⁹⁾. وإن طرح الأسئلة واختيار مواضع للتدبر يُمَيِّ لدى الطلبة مهارة السؤال والاستفسار، والتي تدفع صاحبها إلى البحث والتفكير المنهجي.

المبحث الثاني: مواطن التدبر:

القرآن الكريم فيه مواضع كثيرة تستدعي التدبر، والمطلوب في مراكز التحفيظ التدريب على التدبر حسب المستوى والقدرات الذهنية وبالتدرج، ويُمكن لمدرسي حلقات التحفيظ التركيز على جزء من المحاور الآتية:

أولاً: عرض معاني مبسطة لبعض الكلمات:

عند ورود كلمة غريبة لأبد من التوقف عندها بعد ترديدها، خاصة بعض الكلمات التي يخطئ الطلبة فيها، ويُطرح السؤال حول معناها، ويمكن حكاية قصة حولها وربطها بشيء من الواقع، وينصح بكتاب (المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني)، ومن أمثلة ذلك: "وَالسَّفَرُ: الكتاب الذي يُسَفَّرُ عن الحقائق، وجمعه أسفارٌ، قال تعالى: كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً [الجمعة/ 5] ، وخصَّ لفظ الأسفار في هذا المكان تنبيهاً أَنَّ التَّوْرَةَ - وإن كانت تحقِّق ما فيها - فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل لها، وقوله تعالى: بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ، [عبس/ 15 - 16] ، فهم الملائكة الموصوفون بقوله: كِرَاماً كَاتِبِينَ [الانفطار/ 11] ، والسَّفَرَةُ: جمع سافرٍ، ككاتب وكتبة،"⁽²⁰⁾.

(18) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15/ 9625

(19) رواه مسلم، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي

(20) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، 233

وهذا الأمر يمكن استخدامه في كل لقاء، وأن يقتصر الأمر على كلمة إلى ثلاثة على الأكثر، وأن يُراعى المستوى العقلي للطلبة في عرض المعنى، ويُعتبر هذا الأمر ضروريًا لكافة الأعمار، ويُساهم في زيادة الثروة اللغوية وربط المعنى باللفظ، ويُمكن أيضًا ذكر الكلمات المتشابهة في السور المختلفة ومراجعة الآيات التي وردت فيها، وذلك بطريقة تنافسية، ويمكن إعطاء جوائز صغيرة على ذلك، كل ذلك يُشيع الجو الممتع في حلقات التحفيظ.

ثانيًا: مقارنة بعض الآيات المتشابهة في السورة الواحدة أو عدة سور:

القرآن الكريم كتاب معجز، تحدى به الله تعالى الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو قريب منه، ولو بسورة واحدة، وبناء على ذلك فهو غزير البلاغة، متقن الصياغة، لا تجد في أيّ فقرة منه أيّ خلل أو اضطراب، وهو في غاية الدقة في اختيار الحروف والكلمات والترتيب، معنى وصياغة ونظمًا وصوتًا. ومن القضايا التي يبرز فيها الإعجاز التشابه اللفظي، وهو أن تكون الألفاظ متشابهة في مواضع متعددة، أو التشابه في القصص القرآني عند ورودها في أكثر من سورة، وهو ما يستدعي ضرورة مراجعة الحفظ لهذه المواضع والتنبيه للتشابه والاختلاف، فالتشابه في هذا القسم لا يكون متماثلًا، وقد ورد هذا التشابه في صور عدة منها:

1. التشابه في بعض الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد: ومثال ذلك قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} {إبراهيم: 34}، وقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} {النحل: 18}، ولو تأملنا سبب الاختلاف في الفاصلة لوجدنا أن القرآن الكريم راعى مرة موقف الإنسان من نعمة الله تعالى، فهو ظلوم كفار، وفي الأخرى ركز على مقابلة الله تعالى نكران الجميل من الإنسان بالمغفرة والرحمة، فكان ختام الآية الأولى مناسبًا للحديث عن موقف الإنسان من نعم الله تعالى الذي ذكر في الآيات التي تسبق هذه الآية: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) } {إبراهيم: 28 - 30}، وأما آية النحل فهي مناسبة للحديث عن الله تعالى فيما سبق من الآيات ومن ذلك قوله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ} {النحل: 10}، وقوله: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ} {النحل: 14}، وقوله: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} {النحل: 17}²¹.

²¹ انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، 220

2. التشابه في التقديم والتأخير: ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ} [النحل: 14]، وقوله: {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ} [فاطر: 12]، والتقديم للأهمية والمناسبة للمقام، والمتأمل لسياق آية النحل يجد أنها تتحدث عن نعمة التنقل وعن وسائل النقل، فقدم سبحانه كلمة (مواجر)، أما آية فاطر فتتحدث عن البحر فقدم سبحانه كلمة (فيه)⁽²²⁾.

3. التشابه في الزيادة والحذف: ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [العنكبوت: 63]، وهي الآية الوحيدة التي ورد فيها حرف (من)، بينما شبيهاتها لم يرد هذا الحرف في مثل قوله تعالى: {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [البقرة: 164]، وقوله: {فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [الروم: 24]، وحرف (من) يشير إلى قرب حصول الأمر، وآية العنكبوت مكية ويبدو أنها من أوائل ما نزل من شبيهاتها، فكان التدرج في عرض الأمر من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً، أو أن الآيات تعرض هذا الأمر بكل الطرق والتصريفات.

4. التشابه في الفاصلة (التذييل): وهذا الأمر، خاصة بأسماء الله تعالى وصفاته، يتكرر كثيراً في القرآن الكريم، وهذه الفواصل تحتاج إلى تدبر، فهي متنوعة الشكل والطريقة والاختيار، فتأتي أحياناً مع حرف التوكيد (إن) مثل قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 20]، وأحياناً مع التوكيد باللام مثل قوله تعالى: {وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: 42]، وأحياناً مع ضمير (هو) مثل قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [لقمان: 26]، وأحياناً يكون فيها التقديم والتأخير مثل قوله تعالى: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [البقرة: 234]، وقوله: {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: 153].

ومن اللطائف في هذا الباب أنه ورد في سورة الأحزاب خمس آيات بفاصلة: (وكان الله غفوراً رحيمًا)، واحدة منها فقط كانت مع حرف التوكيد (إن) في قوله تعالى: {لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: 24]، وكأن في ذلك إشارة إلى أن المذكور في الآية احتاج إلى توكيد أكثر من الأمور الأخرى.

5. التشابه في القصة: ومن أمثلة ذلك قصة بني إسرائيل مع موسى ٧ في سورتي البقرة والأعراف، وبينهما تشابه في بعض الآيات، ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ

(22) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، 68

ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)؛، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162)﴾، وقد ذكر السامرائي أن سر الاختلاف يعود إلى اختلاف سياق السورتين، فسياق هذه الآيات في سورة البقرة هو تعداد النعم التي أنعمها على بني إسرائيل، أما في سورة الأعراف فالمقام مقام تقريع وتأنيب، فجاءت الألفاظ مناسبة لكل مقام (23).

6. التشابه في بداية الآيات: تتشابه بداية الآيات في بعض السور، ومن أمثلة ذلك سورة يوسف، التي كثر الابتداء فيها بقوله: (فلما) و (ولما) ليصل إلى 15 آية، ويلفت النظر أن آيتين بينهما تشابه كبير في المضمون تبدأ كل واحدة منهما بشكل مختلف، وهاتان الآيتان هما: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69)﴾ {يوسف: 69}، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ {يوسف: 99}، وقد تكون القاعدة في مثل هذه الآيات أن يقال: إن بعد كل منهما فعلاً، ف (لما) أداة شرط، فإذا كان بين الفعلين زمن دخلت الواو على (لما)، وإذا كان بين الفعلين سرعة في الحدث دخلت الفاء، والآيتان السابقتان تؤكدان هذه القاعدة، فعند الحديث عن دخول إخوة يوسف وحديثه مع أخيه، "استخدمت الواو مع الأداة لَمَّا هنا نظراً لوجود فارق زمني بين الفعل دَخَلُوا والفعل آوَى، لأن يوسف، عليه السلام، لم يكن قد كشف عن شخصه لإخوته، وبالتالي لم يكن بالإمكان أن يخلو بأخيه الصغير فور دخولهم، بل كان لا بدّ له من الحيلة وانتهاز الفرصة أو افتعالها، لينفرد به ويعرفه على نفسه" (24). أما بين دخول أبويه وترحيبه بهم "جاءت الفاء هنا مع الأداة لَمَّا لعدم وجود فارق زمني بين الفعل دَخَلَ والفعل آوَى، وذلك لأن يوسف، عليه السلام، كان ينتظر حضور أبويه على أحرّ من الجمر، فكيف لا يسارع إلى ضمّهما وإيوائهما إليه بمجرد دخولهما؟! (25).

ويُنصح أهل القرآن، والحفظة منهم خاصة، بالتدبر في هذه المواضع، ويمكن الاستعانة ببعض الكتب في توجيه هذه المتشابهات، ومن ذلك: كتاب: (البرهان في توجيه متشابه القرآن الكرمانى)، وكتاب:

(23) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، 311-324

(24) بسام جرار، سياحة الفكر، 462

(25) المصدر السابق، 463

(التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي)، وهذا سيزيد من تذوق النص القرآني، وتبين مواطن إعجازه، كما أنه يساعد على الحفظ والمراجعة.

ثالثاً: التدبر في التناسب:

مما يُميّز القرآن الكريم ارتباط آياته وسوره بشكل رائق ومنظم، وهذا ما يُعرّف عند العلماء بمفهوم المناسبة، يقول الزركشي: "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني"⁽²⁶⁾، ويقول البقاعي: "علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"⁽²⁷⁾.

وعلم المناسبة يعدّ من أشرف العلوم الشرعية؛ وذلك لأنه يتعلق بكتاب الله، ويعتبر من العلوم العظيمة التي تكشف لنا عن وجوه إعجاز القرآن الكريم وبلاغته وفصاحته، كما أن هذا العلم كثيراً ما يعين على فهم معنى الآيات القرآنية، فأكثر لطائف آيات القرآن الكريم مودعة في الترتيبات والروابط بين الآيات والسور⁽²⁸⁾، التي تُظهر قوة الانسجام والارتباط فيما بينها، حتى أنه يكشف معاني جديدة من خلال تتبع مناسبات الآيات لم تكن ظاهرة للمفسر أو للقارئ من قبل.

لذا يجدر بالمحفظين والمحفظات التطرق لهذا الأمر بين الحين والآخر، في بيان مناسبة السورة بما قبلها، أو مناسبة الآية بما قبلها وما بعدها، وأحياناً لفت النظر إلى فواصل بعض الآيات وبيان مناسبة الفاصلة للآية، وخاصة الآيات التي تحتاج إلى تأمل زائد لإيجاد التناسق، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 15]، يقول البقاعي: "أي: الذي له الإحاطة بكل شيء علماً وقدرة {عليم} أي: بكل شيء وبمن يصلح للتوبة ومن لا يصلح وما في قلوبكم من الإقدام والإحجام لو برز إلى الخارج كيف كان يكون {حكيم} أي: أحكم جميع أموره"⁽²⁹⁾.

رابعاً: التدبر في مواضع الوقف والابتداء:

من القضايا المهمة التي يمكن طرحها في جلسات التحفيظ الوقف والابتداء، فهو من الأمور الهامة التي تدل على إعجاز القرآن الكريم وعظمته، ولقد اجتهد العلماء في وضع علامات الوقف لتعين القارئ على الوقف المناسب، وقد بنوا اجتهادهم على معاني الآيات، ويمكن التنبيه على علامات الوقف ومناقشة

⁽²⁶⁾ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 1/132

⁽²⁷⁾ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 5/1

⁽²⁸⁾ انظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، 630

⁽²⁹⁾ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 8/398

معنى الآية مع الطلبة، واستنتاج سبب اختيار علامة دون غيرها، ثم حضهم على التقيد بها، ومن الأمثلة على ذلك:

1. قوله تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يونس: 65]، فيلزم الوقف على قوله: (قولهم)؛ لأن ما بعدها ليس قولهم، ولو كان هذا ما قالوه فلا معنى للحزن عليه، وإنما هناك كلام محذوف تقديره: ولا يحزنك قولهم عن الله تعالى بالضعف والعجز، وقد ذكر بعد آيات قليلة بعض ما قالوه: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [يونس: 68].
2. قوله تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِئْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: 120]، فإذا توقف الطالب في الآية لطولها فلا يجوز أن يبدأ بقوله: {بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}، أو أن يبدأ بقوله: {مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}؛ لأن هذا مناف للحقيقة، فالله ولي رسوله والمؤمنين وهو ناصرهم، ولكنه جواب الشرط، والتقدير: أن الله يتخلى عن ولايتهم ونصرهم إذا اتبعوا أهواء الكافرين.
3. {حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: 7]، في هذه الآية يصل الطلبة القراءة وبعضهم يقف على كلمة (غشاة)، والأفضل أن "يوقف على «سمعهم» ويبتدأ بما بعده وهو «وعلى أبصارهم غشاة» ف (على أبصارهم) خبرٌ مقدم و (غشاة) مبتدأ مؤخر" (30).
4. قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (المتحنة: 1)، في هذه الآية يحظر البدء من قوله: وإياكم؛ لأنها تفيد التحذير، ولا يمكن أن يكون التحذير من الإيمان بالله تعالى، وهي متصلة بما قبلها بمعنى: وأنتم.
5. قوله تعالى: "إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ"، [ال عمران: 124، 125]، في كثير من المصاحف توجد علامة وقف (ج) على

(30) الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، 48

كلمة (بلى)، وهو وقف جيد، لأنها مرتبطة بما قبلها، يقول الرازي: "بلى: إيجاب لما بعد (أن يعني: بل يكفيكم الإمداد فأوجب الكفاية"⁽³¹⁾.
من خلال الأمثلة السابقة يتضح أهمية علم الوقف والابتداء، وأهمية ضبط الحفظة لعلامات الوقف، واختيار أفضل المواطن للوقف والابتداء، لتكون القراءة معبرة عن معناها المراد دون أن يكون لبس عند السامع.

المبحث الثالث: آليات التطبيق العملي للفكرة:

قد يظن القائمون على مراكز التحفيظ أن فكرة التدبر ستأخذ وقتًا على حساب الحفظ، وأنها قد تضيف العبء على الطلبة، ولكن التطبيق الجيد للفكرة سيكون عكس ذلك وسيفيد في إدامة عمل المراكز وزيادة فاعلية دورها في البناء التربوي، ويمكن تطبيق واحد أو أكثر من الاقتراحات الآتية:

أولاً: على مستوى المراكز:

1. طرح سؤال أو اثنين خلال الحلقة والتدريب على طريقة التفكير في الوصول إلى الإجابة.
2. كتابة مجموعة أسئلة، بطريقة تُحفّز التفكير وغير تقليدية، على كل 5 صفحات من القرآن الكريم، وطلب الإجابة المكتوبة على سؤالين أو أكثر في البيت، وتكون الإجابات تطوعية، ويمكن رصد المتفاعلين مع إجابة الأسئلة وتقديم حوافز لهم بعد كل جزء من القرآن الكريم.
3. استضافة أحد المختصين في نهاية كل جزء والتدارس معه حول بعض الأسئلة حول الآيات.
4. إنشاء مجموعة لطلبة المركز على وسائل التواصل الإلكتروني، وطرح الأسئلة من خلالها، والتعليق على الإجابات.
5. عند ملاحظة مجموعة متميزة في الموضوع يمكن عمل دورة خاصة في التدبر، ويمكن أن تكون الدورة لأكثر من مركز، ويمكن لهذه الدورة أن تكون متطلبًا سابقًا لمن يريد أن يرتقي من الطلبة لأخذ سند في قراءته.

ثانيًا: على مستوى الهيئات المشرفة:

1. عقد مسابقات في التدبر، كما هو الحال في مسابقات الحفظ والتلاوة.
2. تضمين بعض المستويات في مسابقات الحفظ أسئلة في التدبر، وعدم الاكتفاء بمعاني الكلمات.

(31) الرازي، التفسير الكبير، 4 / 376

3. أن يكون هناك موقع الكتروني تابع لقسم التحفيظ في الوزارة أو الملتقى أو أي جهة أخرى، تُعرض فيه أسئلة تدبرية يستفيد منها المحفظون والمحفظات.
4. التواصل مع الحفظة الذين أنهوا الحفظ في لقاءات شهرية تطويرية وتربوية.

الخاتمة والتوصيات:

بناء على ما سبق يتضح لنا أن إدراج التفسير التدبري في مراكز التحفيظ يساهم بشكل فعال في عملية الحفظ، ويجعل للحفظ آثارًا عظيمة على الحفظة، ويحقق المراد من إنزال الكتاب العظيم، ويمكن تلخيص ما ذكرنا في نقاط على النحو الآتي:

1. حفظ القرآن الكريم أمر عظيم، ولكن عظمته تزداد وتكون موافقة لمقاصد التنزيل عندما يتعاقد الحفظ مع التدبر.
2. التدبر مهم لتمتين الحفظ وتذكره.
3. التدبر يزيد من ارتباط الطلبة بالقرآن وتأثرهم به.
4. عملية التدبر تساهم ببناء منهجية علمية وترفع من مهارات التفكير لدى الطلبة.
5. ليس المقصود بالتدبر تلقين معاني الكلمات لحفظها، بل إعداد جيد لمواضع يمكن أن تؤدي آثارها.
6. التشابه ظاهرة إعجازية في القرآن الكريم تدعو إلى التوقف والتأمل.
7. الوقف والابتداء من أهم الأمور التي ينبغي توجيه النظر إليها.
8. التدريس في مراكز التحفيظ ينبغي أن لا يقتصر على مجرد التسميع، بل لا بد من العمل على تطوير شخصية الطلبة ورفع مستواهم.
9. ينبغي على المحفظين والمحفظات التحضير الجيد لمادة التحفيظ واختيار مواضع للتدبر والاستعانة بكتب التفسير والإعجاز.
10. تأهيل المحفظين والمحفظات بدورات متخصصة بتدبر القرآن الكريم، وعقد ورشات عمل متعلقة بالموضوع.